مقتطفات من كتاب
رسائل من تحت الأرض
فيودور دوستويفسكي

حدوتة كتاب

إليك... لأنك تعرف لماذا!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

رسائل من تحت الأرض

اتّسم إنتاج دوستويفسكي الروائيّ بالمنهج الفنّيّ الجديد في روسيا، حيث اتّجه إلى البحث العميق في نفسيّات أبطاله، فقدّم صورة واضحة جليّة لواقع الحياة حينذاك خاصّة في (الجريمة والعقاب) و(الأخوة كرامازوف) إلى جانب رواياته الأخرى الّتي وصف فيها حياة الفقراء. وقد ركّز اهتمامه، في هذه الروايات، على تصوّر عالم الفقراء الروحيّ والأخلاقيّ المرتبط بوجودهم الماديّ، كما ركّز على عالم شخصيّاته الداخليّ، والمبادئ الإنسانيّة، والأخوّة، والضمير الحيّ، والنفس القادرة على التضحية والمعاناة، وحمل على عاتقه، في رواياته، معالجة الأحداث الجارية آنذاك، ورسم تأمّلاته التحليليّة تجاه الواقع للخروج من أزمة الحياة الّتي كانت سائدة آنذاك، فهاجم الشرّ الاجتماعيّ، ووقف إلى جانب الإنسان البسيط المضطهد الّذي بنى حلمه عليه وآمن به إيمانًا كبيرًا.

أتعرفون أيها السادة ما هي الميزة الأساسية في حقدي؟ إن المشكلة كلها والجانب المؤذي فيها كامنان في أني، حتى في أشد لحظات حقدي، أحس في أعماقي بالخجل من أنني لم أكن غير حقود في الواقع وحسب، وإنما لم أكن أشكو من شيء قط، كنت أخجل من أنني لم أكن غير ضارب الأرض بلا هدف، يفزع العصافير الآمنة في طريقه، واجداً في ذلك متعة أي متعة!

ولم يقتصر الأمر على أنني لم أستطع أن أكون حقودا، وإنما لم أكن أعرف كيف أكون أي شيء! لم أستطع أن أكون حقوداً أو طيب القلب، ولا نذلاً أو أميناً ولا بطلاً أو حشرة. إنني أعيش حياتي الآن في هذه الزاوية، مهيناً نفسي بمؤاساة حاقدة غير مجدية تتمثل في قولي لها: إن الذكي لا يمكنه أن يكون شيئاً خطيراً، وأن الأحمق وحده هو الذي يمكنه أن يكون أي شيء.

أجل، إن الفرد في القرن التاسع عشر يجب أن يكون مخلوقاً لا شخصية له، أما الإنسان الذي يتميز بالشخصية، الإنسان الفعال، فهو مخلوق محدود. هذا هو ما تعلمته طيلة هذه السنوات الأربعين

لستم تفهمون شيئاً حتى الآن، أيها السادة. أليس ذلك؟ عليّ إذن أن أوضح ذلك أكثر، لعلكم تفهمون دقائق هذه المتعة. أتضحكون؟ هذا ممتع جداً. بيد أن نكاتي وسخريتي سخيفة، مبتورة، غامضة، تعوزني فيها الثقة بالنفس. ولكن ذلك طبيعي، لأنني لا أحترم نفسي. وهل يستطيع إنسان يتمتع بالإدراك أن يحترم نفسه؟

إنني في الأربعين من عمري الآن، ولعلك تعرف أن أربعين عاماً هي حياة كاملة، هي منتهى التقدم في العمر. أما أن يعيش الإنسان بعد الأربعين، فذلك أمر سيء، عادي، منافي للأخلاق! ومن هو هذا الذي يعيش (حقاً) بعد الأربعين؟ أجب عن ذلك بإخلاص وأمانة، وسأخبرك أنا بمن يفعل ذلك: إنهم الحمقى والأفراد الذين لا قيمة لهم. إنني ألقي بهذه الحقيقة في وجوه كل المسنين، والشيوخ المحترمين، المبجلين ذوي الشعور البيضاء! بل إنني ألقي بهذه الحقيقة في وجه العالم كله! ولي الحق في ذلك، لأنني سأعيش إلى الستين، إلى السبعين، إلى الثمانين... هه! انتظر، دعني ألتقط أنفاسي.

آه أيها السادة، لو تعرفون أنني أعتبر نفسي رجلاً ذكياً، لسبب بسيط: هو أنني ظللت طيلة حياتي غير قادر على أن أبدأ أو أنهي شيئاً.

وإنني لأعترف لكم بأنني ثرثار أتحدث بما لا تفهمون، وقد أضايقكم بثرثرتي هذه، إلا أنني لا أؤذيكم بها، ولا أختلف عن غيري في ذلك. ما العمل يا ترى إذا كان همّ كل ذكي هو أن يثرثر وحسب، أي أن يصب الماء في غربال؟

يقولون إن كليوباترا (واسمحوا لي بأن أضرب مثلاً من التاريخ الروماني) كانت مولعة بغرس الدبابيس الذهبية في أثداء وصيفاتها، وكانت تتلذذ وتتمتع بصرخاتهن وبعذابهن. قد تقولون إن ذلك حدث في العهود التي تعتبر بربرية بالنسبة لعهدنا، وقد تقولون بأن عهدنا بربري أيضاً، لأن الدبابيس ما تزال تغرس حتى اليوم، وأنه رغم أن الإنسان تعلم أن يرى الأمور بوضوح أشد مما كان يراها به في العصور البربرية، فإنه ما يزال غير قادر على التصرف وفق ما يمليه عليه العقل والعلم، إلا أنكم مقتنعون تماماً بأنه سيتعلم ذلك حين يتخلص من بعض العادات السيئة، حين يكون الإدراك والعلم قد أعادوا تطور النفس البشرية، وحولاها نحو الاتجاه الطبيعي

يا للممموات! أيها السادة: أي شكل من أشكال حرية الإرادة يبقى حين يؤول الأمر إلى التنسيق والحصر والرياضيات وحين لا يتعدى الأمر كون أن 2 + 2 = 4؟ أن 2 4 = 2 + بدون إرادتي. أيعني ذلك حرية

نحن الروس، بصورة عامة، لم نتميز يوماً بما تميز به الرومانتيكيون الحمقى -الألمان، وأشد منهم الفرنسيون- الذين لا يؤثر عليهم شيء، فلو حدث زلزال، ولو دمرت الحرب الأهلية فرنسا، فإنهم لن يتغيروا، ولن تتوفر فيهم اللياقة والقابلية الكافيتان ليتغيروا، وإنما سيستمرون في الغناء حتى الموت، لأنهم حمقى. أم نحن، في روسيا، فليس فينا حمقى، وهذا أمر واضح تماماً، بل إن هذا هو ما يميزنا عن الأجانب، ولهذا فإن تلك الطبائع المتفوقة غير موجودة فينا بأشكالها النقية. والمبب في هذا يعود إلى «واقعيتنا» من الصحفيين والنقاد في ذلك الحين.

الرجل لا يصلح مثالاً للمرأة لأنه مختلف عنها. ومهما كنت أقود نفسي إلى الانحطاط والرذيلة فإنني لن أكون عبداً لأحد، إنني هنا الآن، ولكنني سأذهب عن قريب، ولن تري وجهي ثانية. ويمكنني أن أنسى هذا كله وأصبح رجلاً مختلفاً. أما أنت.. إنك مستعبدة منذ البداية، أجل مستعبَدة!

وفي ذات ليلة، بينما كنت ماراً بإحدى الحانات رأيت خلال نافذة مضاءة بعض الرجال، وهم يتشاجرون ويضرب أحدهم الآخر بعصي البليارد، ثم قُذف بأحدهم خارج النافذة. ولو كان ذلك قد حدث في وقت آخر لأثار اشمئزازي الشديد، بيد أنني كنت في ذلك الحين في حالة جعلتني أحسد ذلك الرجل المقذوف خارج النافذة - كنت أحسده إلى درجة أني دخلت الحانة ونفذت إلى غرفة البليارد، وقلت لنفسي: لعلهم سيتشاجرون معي ويقذفون بي خارج النافذة أيضاً.

وقلت لنفسي: يا للسموات! أهذه هي الصحبة التي أردتها لنفسي؟ أي حمار جعلت من نفسي أمامهم؟ بل إنني سمحت لفيرفشكين أن يغرق في إهانتي. إن هؤلاء الحمقى يظنون أنهم يشرفونني بسماحهم لي بالجلوس إلى مائدة واحدة معهم. إنهم لا يدركون أنني أنا الذي أشرفهم، وليسوا هم الذين يسبغون عليّ هذا الشرف: «كم تلوح نحيفاً! وملابسك!» اللعنة على سروالي إنني متأكد من أن زفيركوف لاحظ البقعتين الصفراوين على ركبتي سروالي في اللحظة التي دخل فيها الغرفة... ولكن ماذا أصنع هنا بحق الجحيم؟ الأفضل أن أنهض في الحال، في هذه اللحظة، وأتناول قبعتي وأنصرف دون أن أقول كلمة واحدة... لأريهم إلى أية درجة أحتقرهم! ولست أكترث حتى إذا أدى ذلك إلى مبارزة اشترك فيها صباحاً. الفاسدون القذرون! أيظنون أنني مكترث للروبلات السبعة؟ لعلهم يظنون ذلك... لتذهب إلى الجحيم! إنني لا أكترث للروبلات السبعة! سأنهض في هذه اللحظة!

ولكنني بقيت جالساً بالطبع.

وهكذا، فالواقع أنني أبدو أكثر حياة منكم. انظروا إلى الأمر بإمعان! لماذا، بل إننا لا نعرف أين يمكننا أن نجد الحياة الحقيقية، أو ما هي، أو ماذا تدعى. أتركوننا بلا كتب وسترون حيرتنا، وكيف أننا سنضيع أنفسنا في متاهة، ولن نعرف شيئاً نتمسك به أو نحبه أو نكرهه أو نحترمه أو نحتقره. وسيصعب علينا أن نكون بشراً، بشراً بلحم ودم حقيقيين، بلحمنا ودمنا، إننا نخجل من ذلك ونعتبره أمراً مهيناً. ونحن نفعل كل ما في وسعنا لنكون بشراً أسوياء من الناحية النظرية. إننا نولد أمواتاً، وقد ظللنا منذ عهد بعيد نولد بآباء غير حقيقيين. ويبدو أننا نميل إلى ذلك يوماً بعد يوم ونتذوقه. وسياتي يوم نولد فيه بفكرة. ولكن كفى - إنني لا أريد أن أكتب أكثر من هذا من «قبوي المظلم»...

حتى الآن، أؤمن بأن الحب يعني طغيان الرجل وحقه في السيطرة على المرأة التي يحبها والتي تحبه وتمنحه ذلك الحق بإرادته الحرة. ولم أكن أستطيع حتى في أحلامي أن أتصور الحب غير كفاح، وكنت أبدأه بالكراهية وأنهيه بالإذلال التام، ثم لا أعرف بعد ذلك ما أصنع بالمرأة التي أذللتها واستبحتها. أما الأمر الذي لم يكن محتملاً حين أكون قد بلغت تلك المرحلة من الانحطاط الخلقي، وحين أكون قد فقدت الاتصال (بالحياة الحقيقية) فهو أنني كنت قبل ساعات من ذلك قد فكرت في لومها لأنها جاءت تستمع إلى (عباراتي الشجية)، ولم أفكر أبداً بأنها لم تأت لتستمع إلى عباراتي الشجية تلك، وإنما جاءت لتحبني، لأن المرأة لا يمكن أن تبعث إلا بالحب، الحب الذي يعتبر خلاصه الحقيقي من أية مصيبة، والذي يعتبر مصدر صلاحها الخلقي. ولا يمكنها أن تجد ذلك في أي شيء آخر. ومع ذلك فلم أكن أكرهها حين كنت أذرع أرض الغرفة وأنظر إليها من شقوق الستارة. كنت أشعر فقط بضيق لا يُحتمل لأنها كانت موجودة هنالك. كنت أشعر فقط بضيق لا يُحتمل لأنها كانت موجودة هنالك. كنت أريد أن تختفي كنت أبحث عن «السلام»، وكنت أريد أن أظل وحدي في زاويتي الحقيرة. كانت «الحياة الحقيقية» - التي لم أكن معتاداً عليها - فقد سحقتني بحيث إنه لم يكن في وسعي أن أتنفس.